

الفوضى الخلاقة: ثنائية الإنا والآخر من خلال إشكالية الإسلام و الديمقراطية

الدكتور: سعيد الحسين عبدولي
جامعة تونس - تونس

المقدمة:

عجيب أمر هذا العالم، كنا نخاله قد انتقل من حالة الطبيعة المتوحشة وحرب الكل ضد الكل على حد تعبير هوبز إلى مرحلة الحياة الاجتماعية على أسس العقد الاجتماعي: حروب هنا وهناك، دمار و تشريد، إفلاس ونهب لثروات الشعوب ومقدراتها، اغتصاب للحريات والحقوق، نظام عالمي جديد قائم على لعبة المصالح والتحالفات الإستراتيجية للدول العظمى التي تسعى بكل السبل إلى رعاية مصالحها. لنذكر جيدا أننا إزاء نظام طبيعي جديد يتسم بالفوضى: أهات وأنات، انكسارات و إبطات ومزامير حرب مدوية في عديد بقاع العالم شاء لها القدر أن تكون كذلك استجابة لمصالح أعداءها. لا يهّم الخسائر في الأرواح ولا في البنى التحتية، فالعبرة بالنتيجة التي يجب أن تتحقق مهما كان الثمن !!

يسلمنا كل ذلك، إلى موضوع المقال وصلبه، الأمر الذي يقتضي السكوت عن الاجابة في اللحظة الراهنة، انتظارا لما ستسفر عنه رحلة الابحار بين دفتيه ونكتفي بالتساؤل: في أي زمن من تاريخ البشرية نحن؟ وما موقعنا في الحضارة الإنسانية أصلا؟ هل نحن بشر بالمقاييس المدنية أم مجرد أشباح و كائنات قزمية؟ أين الفكري العربي - الإسلامي الذي طالما مثّل مصدر خصب وإثراء؟ أم أن ذلك كله كان مجرد مرحلة تاريخية انتهت معالمها الآن؟

ليس هذا تشويشا على فكر القارئ ولا خرقا لأسلوب الكتابة سواء في بعدها السوسيولوجي أو التحليل السياسي، فربما يكون ذلك من هول الصدمة. فالباحث أحيانا مهما تجرد من الذاتية محاولا التقيد بالموضوعية في تحليل الأحداث، فإنه يصطدم بواقع معقد قد يفلت أحيانا من آليات التحليل التقليدية. ذلك أن مأساة هذه الأمة المشلولة وما تعانيه من أزمات، لا يمكن أن يترك في أنفسنا سوى طعم الهزيمة وخيبة المسعى وهو ما لخصه محمد عابد الجابري في قوله: "الواقع العربي الراهن الذي يجتاز مرحلة انتقالية بطيئة الحركة متداخلة الخطى يتشابك فيها الزمان والمكان والقديم والجديد تشابكا يشوش الرؤية

وبذكي نار التوتر والقلق وبضفي بالتالي على قضايا الواقع طابعا إشكاليا، طابع الوضع المأزوم".¹

فلو جاز لنا أن نلخص هموم الأمة الإسلامية الراهنة في عنوان واحد يحتوي كل الإشكاليات المتعلقة بها وعلاقتها مع باقي مكونات المجتمع الدولي وخاصة منها المتنفذة، لجاز لنا اختصارها في الفوضى

¹ محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 10

الخلاقة: ثنائية الأنا والآخر من خلال إشكالية الإسلام و الديمقراطية: فماهي الفوضى الخلاقة؟ وماهي أغراضها؟ هل هي فكرة مجردة عن الواقع الدولي المعيش أم ظاهرة قابلة للقياس و الدراسة؟

إننا سنحاول جهد استطاعتنا من خلال هذه المحاولة التحليلية أن نتعرض إلى مسألة الصراع الدولي منذ سقوط الإتحاد السوفياتي وبسط الولايات المتحدة سيطرتها على العالم بمعية شركائها. ومن هنا بتنا نلاحظ أن العالم الإسلامي عموما والعربي على وجه الخصوص أصبح ساحة الصراع المحتدمة وهو صراع مستورد. والذي اشدّ ضراوة منذ سنة 1991. فمنذ هذا التاريخ بدأ مفهوم الهيمنة الأحادية جليا لا لبس فيه نقرؤه في أكثر الخطب السياسية للزعماء الغربيين وعلى رأسهم الولايات المتحدة حيث كشفت الحرب الباردة على حد قول محمود حيدر: "حقائق مدوية ما كان لها أن تظهر لولا أن أصبحت الولايات المتحدة وجهاً لوجه مع العالم"².

لذلك ومن أجل أن لا نقع في شرك الفكرية الطويارية، وبغية أن نصل إلى نتائج موضوعية، اعتمدنا على منهج الملاحظة ودراسة مضمون الخطاب وملابسات الواقع العربي حتى ندرك معنى الفوضى الخلاقة وفيها تجلياتها الآنية وأفاقها المستقبلية.

1. الفوضى الخلاقة ودلالات الخطاب:

فإذا حصرنا الآن انتباهنا بشكل خاص في الخطاب الأمريكي، فسيبتين، لا محالة، أن النظام الرأسمالي الذي يتبنى الخيار الديمقراطي استفاد كثيرا من مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية 1945 والتي صاحبتهما استقلاليات الدول التي كانت مسرح العمليات الاستعمارية. وهذه الاستفادة نقرؤها من خلال ما صرّحت به رايس: "طبيعة المصالح الأمريكية تقتضي تحريك الركود الذي يسود المنطقة العربية بالقدر الذي لا يسمح بالانزواء الفوري للأنظمة الراهنة (...). إن أمريكا أخطأت على مدى ستين عاماً من الحفاظ على الاستقرار في المنطقة"³ وفي الحقيقة فإن هذا التصريح وبهذه الكيفية من التعدي على السلم العالمي الذي أكّده ميثاق الأمم المتحدة لا يزيد عن كونه امتدادا للخطاب الأمريكي منذ نهاية الحرب الباردة وميلاد النظام العالمي الجديد القائم على الأحادية القطبية، مثلما نطق به جورج بوش: "إن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها من بين دول العالم تملك من المستوى الأخلاقي ومن الإمكانيات ما يكفي لخلق نظام عالمي جديد"⁴.

وهذا الشعور بالتفوق يعود في الحقيقة إلى مرحلة أسبق من ذلك بكثير أي ما يمكن أن نستخلصه من الشعور الأخلاقي لدى الأمريكي أو على حد تعبير عبد المجيد عبدلي: "هذا التفرد مردّه العقلية السائدة عند الأمريكي ومفادها أن الشعب الأمريكي شعب مختار تقع على عاتقه مسؤولية سعادة الإنسانية. هذه

² محمود حيدر، الفلسفة السياسية للمحافظين الأميركيين الجدد: أيديولوجية الفوضى الخلاقة، صحافي وباحث في الفكر السياسي-رئيس مركز "دلنا" للصحافة والأبحاث، مجلة الدفاع الوطني، العدد 329، www.lebarmy.gov.lb

³ خطاب كونداليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية.

⁴ خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب، 29 جانفي 1991، أثناء حرب الخليج الثانية.

العقلية ليست وليدة الحاضر بل تمتد جذورها إلى الماضي⁵. ويؤكد الكاتب موقفه سالف الذكر نقلا عن محمد هنا" إذ نقرأ في مجلة التايم الأسبوعية الصادرة أثناء الحرب العالمية الثانية ما يلي: إن الأمريكيين قادرون على النهوض بالإنسانية من مرتبة الحيوان إلى مرتبة ما قبل الملائكة بقليل" هذه القوة " تملك من المستوى الأخلاقي ومن الإمكانيات لخلق نظام عالمي جديد"⁶

إذا بات واضحا من خلال ذلك كله، أن الولايات المتحدة الأمريكية راهنت منذ أمد بعيد على مشروعها الرئيسي وهو زعامة العالم، معتبرة نفسها مسؤولة عن السلم العالمي وتوازنات النظام العالمي الجديد ليحل بذلك مفهوم "توازن المصالح" محلّ "توازن القوى". وعليه فإن أي طرف يقف أمام خيارها تلك يعدّ إرهابيا ومنطرفا ووجب محاربه بكل السبل المتاحة. ومن هنا سيبدأ مفهوم الفوضى الخلاقة في التشكّل.

وبعد، فلم يعد قصدنا هاهنا استباق خطواتنا، بل ذلك ما نقرؤه في كتاب فوكوياما " نهاية التاريخ والانسان الأخير" عندما يتحدّث عن أفول الدولة القومية لصالح الدولة الشمولية وهي في اعتقاده الدولة الديمقراطية الليبرالية حيث يقول في هذا الصدد: "سيكون لوجود تاريخ موجّه ولتطور الدول الديالكتيكي نحو الديمقراطية الليبرالية، بدفع من النمو الاقتصادي، نتائج هامة بالنسبة للعلاقات الدولية. وإذا كان مجيء الدولة الشمولية والمنسجمة يعني تحقيق الاعتراف العقلي على مستوى الحياة الاجتماعية للأفراد وإبطال لعلاقة السيد بالعبد فيما بينهم، فإن انتشار نمط الدولة هذا في النظام العالمي يجب أن يعني كذلك نهاية علاقة السيد بالعبد بين الأمم، أي نهاية الامبريالية، ومع هذا النمط، تتقلّص احتمالات الحرب المؤسّسة على هذه الامبريالية."⁷

إن الفوضى الخلاقة هي عبارة عن فجوة وفراغ ينعكس عن استقرار المجتمع وتماسكه، وهو

نتيجة رغبة في التغيّر أملتها تطلعات الفاعلين إلى تحقيق الحراك والتغير في شتى المستويات وخاصة منها السياسية و الاقتصادية، وهي غالبا ما يتم تمويلها من الخارج. حتى وإن كانت عوامل التغيير داخلية فإنه يتم استثمارها وتطويعها بما يخدم مصالح الآخر الغربي الذي يسعى إلى الحفاظ على مصالحه. وعلى هذا النحو فإنها، أي الفوضى الخلاقة التي هي على حد تعبير صموئيل هنتنجتون: "الفجوة التي يشعر بها المواطن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، فتنعكس بضيقها أو اتساعها على الاستقرار بشكل أو بآخر."⁸

ولعل أبلغ حالة في هذا المضمار ما نقرؤه في الخطاب السياسي الرسمي للولايات المتحدة الأمريكية، حيث قدرتها على زرع بذور الفتنة في العالم. مستخدمة في ذلك الديمقراطية كذريعة لتضليل الشعوب الإسلامية. مثلما تعمل ليلا نهارا على تطوير مناهج عملها وتقنيات تنفيذها قصد خلق نظام عالمي غير

⁵ عبد المجيد العبدلي، قانون العلاقات الدولية، دار أفواس للنشر، مطبعة فن وألوان، الطبعة الأولى، تونس، 1994، ص 416.

⁶ غانم هنا، عودة الإستعمار، مجلة الوحدة، العدد 77-78، الرباط، ص 70، نقلا عن عبد المجيد العبدلي، المرجع السابق.

⁷ فرانسيس فوكوياما، (1993)، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، مجموعة مترجمين، بيروت، ص 233.

⁸ إبراهيم كريم، الفوضى الخلاقة دليل إفلاس، موقع قناة المنار.

مستقر. مما يخلق فجوة في محيطه مستعينة بمراكز البحث الإستراتيجية التي تزودها بالمعلومات اللازمة حول كل ما يدور من أحداث في العالم الإسلامي ومنه الشرق الأوسط والمغرب العربي وهذا ما أشار إليه خالد عبد القادر أحمد: "لقد كشفت تسريبات ويكلكس أن المؤسسات العالمية الأمريكية وفي طليعتها وزارة الخارجية الأمريكية ومؤسساتها الإستخبارية، ومؤسسات بحثية أخرى، تقوم بجمع مدى وحجم من المعلومات تشمل تقريبا _ كل _ ما يتعلق بالخلافات المحلية و أطرافها ورموزها وأسبابها وحجمها (...). ولا يقف الأمر عند حد الخلافات، بل يتعداه إلى قراءة تركيبة القوى الاجتماعية ومطالبها وطبيعة الأنظمة والقدرة على استجابتها لتلك المطالب أو عجزها عن ذلك. لقد طورت الولايات المتحدة الأمريكية هذا النهج، وصاغته في نظرية تعامل استراتيجي، تتيح لها أن لا تضطر إلى اللجوء إلى العمل العسكري المباشر إلا مضطرة. خاصة بعد التجربة الفيتنامية، فكانت نظرية الفوضى الخلاقة"⁹.

لذلك ومن أجل توضيح نظرية الفوضى الخلاقة التي هي صناعة أمريكية، تتعدم فيها أبسط مقومات الحضارة وما تحتويه الديمقراطية-التي طالما تشدقت بها القوى الغربية- من قيم لا تزيد هي الأخرى عن كونها كذبة كبرى، ارتأينا أن ننطلق من خطاب الرئيس صدام حسين قبل حرب الخليج الثانية، إذ يقول: "مستعدون لنقوم بواجبنا كجزء من الأسرة الدولية عندما يتضح لنا أن هذه الأسرة ما زال العمود الفقري الأساسي الذي يربطها هو المقياس الدولي والشرعية الدولية بمقياس موحد على كل القضايا وليس بمقياس كذلك، عند ذلك هذه الشرعية الدولية ستعترف للعراقيين بحقوقهم مثل ما يتمنون وتسترجع لنا فلسطيننا العربية"¹⁰.

وهكذا يتبين مرة أخرى، ومثلما أثبتت الوقائع، التزام الحكومة العراقية آنذاك بكل شروط الأمم المتحدة، رغم أنها أملاءت أمريكية-غربية. ولكن الآخر الغربي ضل متمسكا في مخطئه وهو تدمير العراق وتغيير النظام القائم. فكان يخلق الذريعة تلو الذريعة: انتهاك حقوق الإنسان، غزو الكويت، تغيير النظام القائم واستقالة الرئيس، التدخل لحماية الأقليات الكردية والشيعية التي استغلت الظرف للتحرك، بل قل في تحريكها لتستفيد من الصفة.

1.1. أساسيات الفوضى الخلاقة:

تلك نظرة موجزة تعرفنا من خلالها على أهم مظاهر الوضعية الدولية الراهنة باعتبارها نظام عالمي جديد يعبر عن أبشع مظاهر الديمقراطية الليبرالية المتوحشة التي تتعدى كل القيم النبيلة غير عابئة بالمواثيق الدولية التي يتم تطويعها من طرف المتنافسين على اقتسام العالم. لينتج عن كل ذلك مصطلح الفوضى الخلاقة التي تركز على جملة من الأسس المدروسة. تهدف في المقام الأول إلى خلخلة النسيج الاجتماعي

⁹ خالد عبد القادر أحمد، كيف يجري تنفيذ نظرية الفوضى الخلاقة، دنيا الوطن، تاريخ النشر، 5-2-2011.

¹⁰ خطاب الرئيس العراقي صدام حسين، قبل نشوب حرب الخليج بيومين 1991.

وإرباكه حتى تعمّ فيه الفوضى. مما يفسح الطريق للتدخل العسكري أو السياسي والاقتصادي. ومن هنا أمكننا إجمال أهم أسسها وفق الآتي:

- إثارة الفتنة الطائفية والعرقية والدينية بين شعوب الوطن الواحد (المثال اللبناني والعراقي).
- التصلب والاستبداد السياسي وحق الشعوب في الديمقراطية (المثال التونسي والليبي واليمن والمصري والسوري أو ما يسمى بالربيع العربي).
- النزاعات الحدودية بين الدول ومنها الانفصالية المطالبة بالاستقلال الداخلي (المثال السوداني وربما في المستقبل القريب تأجيج نار الفتنة بين الدولتين الجارتين المغرب والجزائر في إطار قضية جبهة البوليزاريو).¹¹
- إغراق عديد البلدان في المديونية مما أدى إلى إفلاسها (اليونان وإسبانيا) عن طريق سياسات الإقراض المجحفة التي لا تساهم في التنمية الحقيقية بقدر مساهمتها في تمويل بنوك الإقراض الدولية وبالتالي تعميق الهوة داخل البلدان المستدينة مما يعمق حجم الفجوة داخلها.
- الإرهاب الدولي الذي هو وفق التحديد الأمريكي نابع من الحركات الإسلامية المتشددة التي ترفض النموذج الديمقراطي (المثال الأفغاني).

كل هذه الصنائع الغربية في بلاد الإسلام ومنها الجغرافيا العربية، إنما يسعى الاستعمار إلى صناعتها عبر فرض نموذج الحضاري الجديد على نحو ما ذكره محمد عابد الجابري: "فمن التبادل التجاري غير المتكافئ، إلى التدخل في الشؤون المحلية بذريعة الدفاع عن حقوق أقلية من الأقليات أو حماية مصالح معينة، إلى الحكم المباشر، إلى الهيمنة الاقتصادية والسيطرة الثقافية والإيديولوجية. والنتيجة من كل ذلك: غرس بنى النموذج الغربي في بلادنا"¹¹

وهكذا نستطيع القول، أن العالم اليوم يسير نحو مزيد من اللااستقرار، وفق خطط مرسومة سلفا. مثلما يدلنا على ذلك واقع الحال العربي الذي ابتهج له الكثيرون. أعني أولئك الغارقين في معانقة شعارات قديمة، غير عابئين بما يجري من حولهم. فتراهم طالة يطربون للديمقراطية و"ربيعها العربي" ومرة ثانية يتحصرون على الماضي رغم رداءته كلما اصطدموا بحقيقة الأمور. ذلك أن الفوضى الخلاقة كمفهوم لها عديد زوايا الإدراك. فهي من منظور الفرد العادي عبارة عن أزمات متتالية تتجلى أساسا في كثرة الصراعات بين مكونات المجتمع الواحد. وهي في مستوى ادراك الفاعل السياسي تدرج في إطار لعبة المصالح باعتبار أن المناورة السياسية لها وجهان:

- وجه ظاهر يسعى قدر الامكان إلى مجارات توجهات الرأي العام من قبل الزعماء أي أولئك الماسكين بزمام السلطة. ولتوضيح هذه الفكرة وفق دلالتها في المجتمع العربي والذي منه تونس على سبيل المثال رأينا

¹¹ محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 18

أن حركة النهضة وهي تتقدّم نحو الضفر بكرسي السلطة تراهن على شعارات ثورية وأخرى وجدانية تمسّ جوهر الهوية. فهم ضحايا النظام الاستبدادي الذي حكم تونس على امتداد خمسة عقود، مثلما هم ضحايا التعذيب والسجون. ناهيك عن تسلّفهم سلّم الدين باعتبارهم حزبا اسلاميا يروم الى تطبيق الشريعة.

■ وجه خفي يبرز من خلال علاقاتهم بالآخر الغربي لا في حدود ما تفرضه المصلحة المتبادلة التي تراعي هيبة الدولة واستقلاليتها من ناحية، وطموح الشعوب للحرية والرفاه من ناحية ثانية. ولكن في مدى امتثالهم لشروط الآخر المتحكّم في عصب النظام العالمي وتوجيهه وفق ما يخدم مصالحه¹²، وصل أقصاه ما قرأناه في وثائق ويكلكس السرية التي كشفت أساسيات الخطاب الأمريكي في السنوات الأخيرة وهو ما سنأتي إلى إبرازه في مواطن أخرى من دراستنا هذه.

إن الديمقراطية بالنسبة للآخر المتفوّق غاية ووسيلة. فإذا تعلق الأمر بسياساته اللاستعمارية والتسلطية تكون وسيلة لتحقيق برامجه التوسعية. ويروّج لها بطرق ذكية وفق خصوصيات كل منطقة، أي حسب طبيعة الصراع القائم في البلد المستهدف (عربي، ديني، حدودي، مطلب اجتماعي، تصحيح وضع سياسي، اقتصادي، ...) وعليه تكون الديمقراطية كما أسلفنا القول وسيلة لتبرير تدخله. وهنا نلتقي مع الكاتب عبدو شامي في مقال له "بعنوان شرارة الفوضى الخلاقة.. الثورة التونسية" حيث يقول: "الديمقراطية التي تنشدها الشعوب ويراد الانتقال إليها بشكل فوري وربما فوضوي من خلال الإطاحة ببعض تلك الأنظمة لا بواسطة تغيير سلوكها، قد تكون أو تُتخذ في بعض البلدان سبيلاً الى التقسيم، (...) عملاً على تغذيتها من قبل أصحاب ذلك المشروع التقسيمي الصهيوني-أميركي، وفقاً لخطة "الفوضى الخلاقة" أو "البناء" الرامية إلى فرض الديمقراطية على الطريقة الأميركية¹²."

ولكي نفهم هذا التفسير حق الفهم، أمكن الكشف عن ديناميكية الأحداث في الساحة السياسية التونسية والتي نورد البعض منها في شكل تساؤلات: ما مبرر زيارة وفد من حركة النهضة إلى الكونغرس الأمريكي بعيد سقوط النظام في 14 جانفي 2011؟ لماذا تشدّد الحكومة التونسية ذات الغالبية النهضوية قبضتها على التيار السلفي رغم اعلانه أن تونس أرض دعوة وليس جهاد؟ لماذا التهاون في حماية السجينين السلفيين¹³ المضربين على الطعام بعد ايقافهما على اثر أحداث 14 سبتمبر 2012؟ ثم ما مبرر التدخل القطري السافر في الشؤون الداخلية للبلاد التونسية سواء بصفة علنية مفضوحة أو غير مباشرة؟ ثم ما تاريخية وطبيعة العلاقة القطرية- الأمريكية وما جدواها في تغيير خارطة العربية وتنفيذ الخطط المرسومة؟

ولو أردنا أن نوسّع دائرة التساؤل أكثر لقلنا: إن الولايات المتحدة الأمريكية بمعية حلفائها وعملائها يضيّقون الخناق على بعض الجهات السياسية في هذا البلد ويدعمون نفس التنظيم في بلد ثاني. وللتدقيق

¹² عبدو شامي، شرارة الفوضى الخلاقة.. الثورة التونسية، المراقب يوم 01 - 05 - 2011
¹³ بشير القلي و محمد البختي، وقد توفيا في ظروف غامضة وأمام صمت اعلامي وغياب تحرك التنظيمات الحقوقية الأمر الذي أمكى محامي البختي في تصريح نشر على موقع التواصل الاجتماعي "الفيسبوك".

أكثر في هذه النقطة أمكن الإشارة إلى التيار السلفي الذي يتم دعمه بالسلاح والمال والدعاية الإعلامية في سوريا¹⁴ قصد الإطاحة بالنظام في حين يحاصر في تونس ومالي. وعليه يكون السؤال المشروع: ما الحكمة في ضل هذه المفارقة العجيبة؟ ذلك هو أساس الفوضى الخلاقة.

ومما له دلالة خاصة بموضوعنا، كون هذه الأسئلة ومثيلاتها من الاشكاليات المطروحة سواء في الساحة التونسية أو غيرها من بقاع العالم الإسلامي، أمكن حصرها في فكرة واحدة. وهي أن كل ما نراه من أحداث سياسية تطغى على الساحة العربية والإسلامية ليس هو وجه الحقيقة كما يتمثلها الأغلبية الساحقة من شعوب المنطقة التي ساهمت الموجات الديمقراطية الكاذبة في بتر وعيهم وتذريه. إذ عوض أن يلتقوا على نفس المبدأ - الذي ساهم في تكوينهم كأمة واحدة - نراهم على خلاف ما جاء في نص الوصية: " فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله وسنتي؟ ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد"¹⁴.

لا شك إننا هنا إزاء تحقيب يثير عديد التساؤلات، لعل أهمها ما نحن بصدد شرحه، وهو الفوضى الخلاقة التي لا تزيد عن كونها تقنية جديدة لنقثت لحمة الأمة الغارقة في الجهل والتخلف والتأخر الحضاري بكل مكوناته وخاصة منها العلمية والتكنولوجية. وهذا التصحر المعرفي في كليته هو أحد أساسيات الفوضى الخلاقة لأنه يخلق تبعية الأنا للآخر. وهي تبعية نعاينها اليوم بكل جلاء من خلال التحكم في إرادة شعوب المنطقة بلغ أقصاها السعي إلى تنميط القرآن وتوجهاته الكبرى. الأمر الذي أفرز ثلاثة تيارات متضاربة: الأصالة والحداثة والانتقائية. وفي هذا الصدد يقول محمد عابد الجابري: " مواقف عصرانية تدعو إلى تبني النموذج الغربي المعاصر بوصفه نموذجا للعصر كله، أي النموذج الذي يفرض نفسه تاريخيا كصيغة حضارية للحاضر والمستقبل، ومواقف سلفية تدعو إلى استعادة النموذج العربي الإسلامي كما كان قبل الانحراف والانحطاط (...)، ومواقف انتقائية تدعو إلى الأخذ بأحسن ما في النموذجين معا والتوفيق بينهما في صيغة واحدة تتوافر لها الأصالة والمعاصرة معا"¹⁵.

و الخطر لا يكمن في اعتقادنا في القراءات الحداثوية التي تعبر عن وجهات نظر أصحابها. بل في انتصار الغرب الأوروبي إلى التيار الذي يتمشى مع تطلعاته ويخدم أغراضه، وهو حتما التيار الحداثي المتطرف. وأعني بعبارة متطرف هنا ذلك التيار الاصلاحى الذي يستثني الاسلام من المرجعية التحديثية¹⁶ أو يقرؤه بمنهجية تشويهيية مسقطه تحيد عن روح الإسلام والتي من مظاهرها الاستعلاء عن الجانب العقائدي في الاسلام واعتباره عائقا لعملية التحديث على المنوال الغربي الذي يتناقض أحيانا مع ما أقره الاسلام وخاصة في مسألة التقوى. مثلما جاءت في خطبة الوداع: "أيها الناس: إن ر بكم واحد، وإن أباكم واحد،

¹⁴ الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام، خطبة الوداع،

¹⁵ محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 16

كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ (...)¹⁶

ما نريد أن نخلص إليه مما تقدم، هو أن كلمة ديمقراطية لا تتطابق كلياً مع خصوصية المنطقة. وبعيدا عن التنظيرات الفلسفية و الإنتصار إلى طائفة سياسية-أيديولوجية بعينها، فإننا سنتوخى منهج الملاحظة المباشرة التي يكون موضوعها الواقع بكل تراكماته وتجلياته. وقتها سنقف عند أحد الأسس المهمة للفوضى. ذلك أن الديمقراطية كمفهوم غربي طُبِّق على امتداد عدّة أجيال على المجتمعات الأوربية لا يمكن أن ينجح في مجتمع عربي إسلامي يساهم المقدّس في تنظيم معيشه اليومي. الأمر الذي أنتج منظومة تصورات خاصة بالفاعل الإسلامي تختلف عن الآخر الأوروبي.

إن مجرّد التفكير في تطبيق المشروع الديمقراطي في البلاد العربية الإسلامية يطرح جملة من الثنائيات المفاهيمية من نوع الحلال والحرام، الممكن واللاممكن، الأصالة والمعاصرة، الكفر والإيمان، الهوية والتبعية أو الأنا والآخر... وعلى العموم فإن الأسس التي تقوم عليها الفوضى الخلاقة باعتبارها أحد أبرز آليات الاستعمار والهيمنة الغربية الحديثة، لا تزيد عن كونها ظاهرة كونية آخذة في التفاقم وتتفاعل مع خصوصيات كل منطقة مثلما هو الحال في المنطقة العربية التي يصفها البعض بأنها الربيع العربي.¹⁷

ومما يجب ذكره - في هذا الخصوص- أيضا أن المنطقة العربية تبق بحاجة إلى اصلاحات جذرية تقوم على غير تلك الأسس السالفة الذكر. بمعنى أدق أن الاصلاح الذي يأتي من الخارج ولو بطرائق مختلفة يبدو في معظمه براقا وورديا لا يمكن أن يلبي حاجيات الداخل العربي. لأنه يعمد في المقام الأول إلى خلخلة النسيج الاجتماعي وإرباكه حتى تعمّ فيه الفوضى والطائفية و القتل العشوائي وتتعطّل عجلة التنمية ويتم تدمير البنى التحتية وكل مقومات الدولة وتعمّ مشاهد البربرية تحت عنوان واحد هو: الديمقراطية. هاهنا تكمن ديمقراطية الارهاب بعدما كنا نتحدث عن ارهاب الديمقراطية !

ولكن الاشكالية في هذه المسألة التي تقتضي التوقف عندها وفك مغاليقها هي: هل أن الديمقراطية الغربية هي الخيار الوحيد لإصلاح منظومة الداخل الاسلامي الفاسدة؟ أليس في التراث و عبقرية الفاعل الاسلامي ما يكفي لإصلاح واقع الحال؟ وهل أن الفوضى الخلاقة التي تنهش جسد الأمة وتعطلّ باستمرار تقدمها هي نتاج ما أفرزته سياسات الاصلاح التي تنتشط بشكل متسارع في العالم العربي أم هي مشروع الخارج؟

¹⁶ الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام، خطبة الوداع، 10 هجرية، يوم عرفة من جبل الرحمة
¹⁷ لمزيد التعمق في هذه المسألة وتحديد الوقوف على معنى الديمقراطية ومقاربتها بالشريعة الاسلامية، راجع مركز محمد وذكّر، الديمقراطية في الميزان، الشبكة المعلوماتية www.wathakker.info، تاريخ الاظافة 2011-12-24.

1.2. الفوضى الخلافة: صناعة أمريكية:

لا يتورّع الخطاب السياسي الأمريكي في أعلى مستوياته إلى ممارسة أسلوب المراوغة قصد تبرير ممارساته، كان آخر نتائجها المرعبة مقتل أطفال العراق وتجويع شعبه وتدمير بناء التحتية و الدّوس على حضارة أمة ضاربة في التاريخ. حتى أن وحشية العدوان الصليبي على هذا البلد كان أشدّ جرماً من زحف المغول والنتار. فالعراق اليوم هو أرقى تجليات التأخر والفوضى بل قل الوجه الرديء للديمقراطية التي كانت مفتاحاً لغزوه. ولسنا بحاجة هنا للتعمّق في إبراز مظاهر ذلك، بقدر ما نودّ لفت الانتباه إلى حجم البون الشاسع بين عراق الأمس والحاضر.

كل ذلك يجعلنا ونحن نتطّلع إلى عراق ما بعد 1991 إلى حجم الخراب والتدهور الذي صار عليه هذا البلد بعد اجتياحه. لنكون بذلك إزاء أحد نتاجات الفوضى الخلافة. وقلنا أن الخطاب الأمريكي يمارس سياسة المراوغة فذلك أمر جليّ أمكن قراءته من خلال أكثر من مثال. من ذلك ما صرّح به أوباما: "إننا نلتقي في وقت يشوبه التوتر بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي وهو توتر تمتد جذوره إلى قوى تاريخية تتجاوز أي نقاش سياسي راهن. وتشمل العلاقة ما بين الإسلام والغرب قروناً سادها حسن التعايش والتعاون كما تشمل هذه العلاقة صراعات وحروباً دينية".¹⁸

يقرّ الرئيس أوباما الذي وصل إلى سدّة الحكم عبر الوعود المغرية التي قدّمها إلى اليهود وتدعيم أركان دولتهم المزعومة "إسرائيل"، بوجود توتّر بين عالم الإسلام والآخر الغربي. معتبراً أن ذلك يعود إلى جذور تاريخية. فما هو تاريخ الولايات المتحدة حتى يكون لها صراع تاريخي مع عالم الإسلام؟

و للتدقيق، فإن أمريكا هي دولة حديثة العهد مقارنة بالحضارة الإسلامية التي يزيد عمرها عن 14 قرناً، ولم يسبق لها أن شهدت صراعاً أو حرباً مع أي بلد إسلامي قبل ظهورها كدولة ذات وزن إبان الحرب العالمية الثانية. ثم هو يتحدث عن حرمان هذه الشعوب متناسياً بذلك حق الشعب الفلسطيني... ثم لماذا هو ينكر حقيقة التعارض بين ما جاءت به العولمة والديمقراطية من ناحية والإسلام الذي سبق الخطاب السفسطائي الأمريكي بآلاف السنين؟ أليس من بين معاني الديمقراطية حق الشعوب في تقرير مصيرها واحترام الأديان؟ ثم ماهي مشكلة الإسلام في منظور الغرب: كونه دين يدعو إلى الأخوة والألفة؟ أو لأنه دين يقوم على العدل الذي هو أساس العمران؟ أم باعتباره دين ينبذ كل المحرّمات التي تبيحها النظم الليبرالية؟

في الحقيقة هناك انتباهة لا بد من الوقوف عندها في هذا الإطار. وهي ذات صلة بالعنصرية الأمريكية. وتتجلي في كونها بقدر سعيها إلى خلق قوتها فهي تعمل جاهدة إلى تثبيت أركانها حتى لا تزول. مستفيدة في ذلك من تجارب الإمبراطوريات السابقة لها. إذ أن بروزها كقوة عظمى كان نتيجة جملة من

¹⁸ خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما، جامعة القاهرة، القاهرة، 4 يونيو 2009

التجارب المتتالية لخصها Bruce Ackerman في أربعة مراحل. نذكر منها المرحلة الرابعة باعتبارها خلاصة تلك التجارب: "وهي بدأت خلال عقد الستينات عبر نشاط الحركات الاجتماعية واستمرت إلى حين تفكيك الإتحاد السوفياتي وكتلة أوروبا الشرقية. فالمراد من حصيلة هذه المراحل الدستورية القول إن كلاً منها شكّل خطوة إلى الأمام في التشكّل التاريخي للسيادة الإمبراطورية للولايات المتحدة".¹⁹ وقد علّق ميشال بوغنون موردان عن هذا الاستكبار الأمريكي في كتابه "أميركا التوتاليتارية (L'Amérique Totalitaire) بقوله: "أنّ الإيديولوجيا الأميركية لم تتورّع عن خلع صفة الأزلية على أميركا، حيث إنّ ادعاء الرسالة الإلهية لم يغيب يوماً عن ناظرها".²⁰

يسعى الغرب الأوروبي إلى خلق فهم جديد للإسلام. وذلك في إطار تنميط الثقافة العالمية التي تجتاح العالم أي وفق مقاييس الآخر. هذا التنميط الذي بدأت معاملته واضحة للعيان منذ سنة 1991 وصدور كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" للكاتب الأمريكي فرانسيس فوكوياما الذي يرى "أن صراع الإيديولوجيات توجّ بغبلة النموذج الديمقراطي الذي برهن على جدواه من خلال استناده إلى قيم مثلى وفي مقدمتها الحرية والعدالة والمساواة...".²¹

ثم يواصل قوله مدافعاً على الخيار الديمقراطي قائلاً: "الديمقراطية الليبرالية، عقيدة الحرية الفردية والسيادة الشعبية. فبعد مئتي سنة من إطلاقها للثورتين الأمريكية و الفرنسية، برهنت مبادئ الحرية والمساواة، ليس فقط على أنها دائمة بل أيضاً على أنها تستطيع أن تتبعث من جديد".²²

هذه العقيدة الليبرالية التي تستخدم مفاهيم الديمقراطية بطريقة عكسية قصد إيهام الشعوب و تضليلها. هي التي أفرزت بالنتيجة الفوضى الخلاقة التي تعد واحدة من الخطط قصد السيطرة على العالم و زرع بذور الفتنة فيه. ذاك أنه وعلى حد قول خالد عبد القادر أحمد: "إن النهج الاستعماري العالمي اقتصادياً وسياسياً بشكل عام، هو المسؤول المباشر وهو سبب الأزمات الاقتصادية والثقافية السياسية التي تسحق المجتمعات النامية"²³

توظّف قوى الاستكبار العالمي المفاهيم الديمقراطية البراقة من أجل إنتاج المآسي في أكثر من مكان من العالم. فالديمقراطية لها وجهان: وجه قبيح يأتي على استقرار الشعوب و آمالها في الاستقلال والسيادة والتمتع بثرواتها ووجه آخر جميل يدعو إلى الحرية والرفاهية،²⁴ وهنا يبرز المعنى الحقيقي للفوضى الخلاقة،

¹⁹ Bruce Ackerman, proposes a periodization of the first three regmes or phases of U.S. Constitutional history. See wetne people: Foundations (Cambridge, Mass: Harverd University press 1991) in particular pp.58-80

²⁰ ميشال بوغنون-موردان- أميركا التوتاليتارية - الولايات المتحدة والعالم إلى أين؟ تعريب د.خليل أحمد خليل - دار الساقى - الطبعة الأولى 2002 ، ص 542.

²¹ فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، مجموعة مترجمين، بيروت، 1993، ص69-70.

²² نفس المرجع.

²³ خالد عبد القادر أحمد، كيف يجري تنفيذ نظرية الفوضى الخلاقة، دنيا الوطن، تاريخ النشر، 5-2-2011

²⁴ راجع في هذا الشأن: صياح عزام، إستراتيجية الفوضى الخلاقة بوجهها الخادع والنبشع، شؤون سياسية، تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر.

لا بل قل آثارها الحقيقة التي يمكن لأي فاعل عربي أو مسلم معاينتها حتى يعيد حساباته حول التغيير القادم من الغرب وهو يكافح أنظمة الداخل المستبدة أو التي له معها حسابات.

فإذا حصرنا الآن انتباهنا بشكل خاص في المثال العراقي، وهو لا محالة أصبح يسير القراءة، لأدركنا النوايا الفعلية من وراء غزوه، ذلك ما عبّر عنه السيد نعيم بقوله: "بالفعل فقد خلق الاحتلال في العراق سلبيات من نوع جديد لم تكن موجودة من قبل حيث خضعت المناصب و السلطات والثروة للاقتسام الطائفي²⁵ كما تحول العراق الي وكر للعمليات الإرهابية والجماعات المسلحة واحتل المركز الثالث بين 60 دولة فاشلة في العالم وذلك طبقا لتقرير منظمة الشفافية العالمية وتعرض حاضر ومستقبل البلاد للخطر بسبب الصراعات المذهبية والعرقية..."²⁵

و الغريب في الأمر أن الولايات المتحدة الأمريكية تعلن صراحة أنها الراعي الأول للديمقراطية كلفها ذلك ما كلفها. فهي تستخدم ما أمكن أن نصطلح عليه بالموجات الدعائية الاستباقية. أي أنها تنشر الرأي العام الدولي وتألّب ضد الدولة التي تريد استهدافها مسخّرة في ذلك ترسانتها الإعلامية الهائلة وأبواقها الدعائية داخل العالم الإسلامي كلما أحست بأن هذا النظام أو ذاك يهدد مصالحها ومصالح حلفائها. وقد وصفت جريدة Le Temps مفهوم الحرب على الإرهاب بأنه " لغة خشبية وشئت الحرب على أفغانستان و العراق وباكستان وعلى اليمن اليوم تحت هذا الشعار. وخطر هذا التدخل كانت نتيجته أخطر من الإرهاب نفسه"²⁶. في حين بيّن الباحثان الإستراتيجيان الفرنسيان جيرار شاليان (Gerard Chaliand) وأرنو بلين (Arnaud Blin) أن الولايات المتحدة الأمريكية جمعت بين مفهومي "الهيمنة" و"الرسالية"²⁷ ولكأن " أميركا هي العالم والعالم هو أميركا"²⁸

يغنيني عن التفصيل في هذه النقطة، ما استخلصته من الخطاب السياسي الأمريكي وهو لا محالة كثير ومتشابك. قلت ذلك مثلا على ضوء ما جاء في خطاب الرئيس باراك أوباما: " يبين الوضع في أفغانستان أهداف أمريكا وحاجتنا إلى العمل المشترك. وقبل أكثر من سبع سنوات قامت الولايات المتحدة بملاحقة تنظيم القاعدة ونظام طالبان بدعم دولي واسع النطاق. لم نذهب إلى هناك باختيارنا وإنما بسبب الضرورة."²⁹ في هذا الجزء من الخطاب تبدو السياسة الأمريكية واضحة لا لبس فيها، فهل أن أفغانستان دولة مجاورة لأمريكا؟ أم هناك أزمة ديون بين البلدين؟ أليس كل ما في الأمر أن أفغانستان أرادت أن ترسم

²⁵ السيد نعيم، الفوضى الأمريكية .. "غير الخلاقة" في العراق، أخبار مصر يوم 20 - 08 - 2007، نقلا عن : الجمهورية 07/8/20

²⁶ Le Temps, Jeudi 21 janvier 2010

²⁷ Gerard Chaliand et Arnaud Blin American is back – less Nouveaux Cesars dzu. 2002 Pentagooune. Paris

²⁸ محمود حيدر، الفلسفة السياسية للمحافظين الأميركيين الجدد: أيديولوجية الفوضى الخلاقة، صحافي وباحث في الفكر السياسي-رئيس مركز "دلنا" للصحافة والأبحاث، مجلة الدفاع الوطني، العدد 329، www.lebarmy.gov.lb

²⁹ خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما، جامعة القاهرة، القاهرة، 4 يونيو 2009

سياستها الداخلية بكل استقلالية، فاخترت التوجه الاسلامي مثلما اختارت الولايات المتحدة الخيار الليبرالي الديمقراطي ودافعت عنه.

وما يتعين طرحه للجدل في هذا الموضوع من التحليل، هو "الباراديقم" الأمريكي إن صح التعبير. أي الاطار النظري العام الذي تتوخاه لفرض سياستها الخارجية. فالمعروف في هذا الصدد، أنها دائماً السبابة إلى الكشف عن أهم التحركات لبعض الجماعات أو الأحزاب أو التنظيمات.. وتعبّر عن خشيتها منها وتتهمها بأنها مصدر قلق، وفي هذا الصدد يقول محمد حيدر: "المعروف عن هذه النظرية أنها وجدت دينامياتها الفعلية بعد زلزال الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، وهي تقوم على فلسفة سياسية تفترض وجود خطر داهم من عدو مجهول يتهدّد الأمن القومي الأميركي في كل لحظة. كما تقوم على افتراض ألاّ يكون التهديد بالضرورة، حاصلًا بالفعل من دولة أو من منظمة إرهابية لكي تخاض ضده الحرب الوقائية، وإنما يكفي أن يتم تصوّره من جانب مراكز التخطيط الإستراتيجي في البيت الأبيض والبنتاغون للمبادرة إلى تلك الحرب"³⁰.

إن استهداف الولايات المتحدة الأمريكية للعالم الاسلامي بهذه الوحشية الموغلة في البربرية، ليس بالأمر العشوائي. بل هو نابع من برامجها الليبرالية التي لا يمكن لها أن تغلح إلا في ظل ارباك نسيجه الاجتماعي وتماسك مقوماته العضوية فتحوله إلى أجزاء متضاربة بل قل متناحرة، غذتها بسلاحها الدعائي وهو الديمقراطية. ويبقى العراق خير شاهد باعتباره المجال المخبري الذي طبقت عليه نظرية الفوضى الخلاقة. وإذا، يمكن القول بصفة عامة وعلى حد تعبير محمد حسنين هيكل وهو يستعرض الصيرورة الإجمالية للشكل الأمريكي: "إنّ الولايات المتحدة نشأت ونمت . بطبائع الجغرافيا والتاريخ . دولة متحرّكة لا تطبق الوقوف مكانها. وتعتقد أنّ الوقوف لا يكون إلاّ استسلاماً لحصار أو تمهيداً لتراجع. أي أنّ غرائزها ودوافعها تحفرّها دائماً لأن تتقدّم وتتقدّم . تنتشر وتنتشر".³¹

2. الفوضى الخلاقة والحرب على الإسلام:

2.1. الأنا الإسلامي وسياسة الإقصاء:

لقد بنتا في زمن الدعاية الغربية والحملة المسعورة عن الاسلام والمسلمين لتمثّل أفغانستان على أنها بلد الارهاب والتخلف والامية والفقر وكل ماهو تأخّر،³ ومنتاسى أو ينسينا الآخر ذلك المشهد المبكي والمحزن من التاريخ الأفغاني الذي حاولت قوى الاستكبار العالمي أن تمارس عليه ضغوطه وتخضعه إلى سياستها بدءا من التجربة الشيوعية- السوفيائية التي باءت بالفشل وانتهاء بالحملة الديمقراطية-الليبرالية-

³⁰ محمود حيدر، الفلسفة السياسية للمحافظين الأميركيين الجدد: أيديولوجية الفوضى الخلاقة، صحافي وباحث في الفكر السياسي-رئيس مركز "دلنا" للصحافة والأبحاث، مجلة الدفاع الوطني، العدد 329، www.lebarmy.gov.lb
³¹ محمد حسنين هيكل - الإمبراطورية على الطريقة الأميركية - "وجهات نظر" القاهرة - العدد الخمسون - السنة الخامسة - مارس (آذار) 2003.

الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. فالأولى كانت تحت راية التوسع الاشتراكي وتوسيع الخارطة السوفياتية. في حين أن الثانية كانت في إطار السعي إلى تميمط هذا البلد الذي يرفض بكل شدة أسلوب الآخر في الحياة. وهذا يكفي لإدانته بعد اتهامه بالإرهاب وتهديده للسلم العالمي.

فالخيار الإسلامي ما لم يكن متجاوبا مع الديمقراطية يضل خيارا خطيرا لا بد من محاربتة بشتى السبل. وفي هذا السياق يورد ميشال بوغنون- موردان جزءا من كلام معاون الرئيس الأمريكي بيل كلنتون لشؤون الأمن القومي أنطوني لاك يذكر فيه: "إن مصالحننا ومثُلنا لا نلتزمنا بالتدخل وحسب، بل نلتزمنا أيضاً بالقيادة (...). من واجبنا تطوير الديمقراطية واقتصاد السوق في العالم لأن هذا يحمي مصالحنا وأمننا، ولأن الأمر كذلك يتعلّق بانعكاس القيم، حيث هي في آن قيم أميركية وعالمية"³².

وعليه فإن محاربة الإسلام الراديكالي (السلفي، المتشدّد) يعدّ من أبرز المهام الموكولة على عاتق الولايات المتحدة الأمريكية ومعاونيها أي كل أنصار التيار الليبرالي التحرري الذي يتبنى الإسلام المعتدل، والذي اتخذ عدة تسميات في العشرية الأخيرة.³³ وكما هي عديدة الدراسات التي انساقنت وراء هذا التمثّل للتجربة الإسلامية وسعت إلى الحطّ من قيمتها دون علم روادها بكنه الإسلام الذي هو رؤية متكاملة لتنظيم المجتمع وتطويره، فهو في "حقيقته نظام حياة، ونسق فكري وحضاري متكامل يشمل الواقع كله. وليس مجرد خطاب لترطيب الجوانح وتطبيب النفوس"³⁴

ذلك بيان نوره ونشده عليه في المبتدأ، فالإسلام هو مشروع حضاري متكامل جاء ليصلح المجتمع وينظمه، ويهدّب الذوق البشري حتى يرتقي إلى مرتبة الانسانية بلا صراعات طبقية أو حسابات مذهبية مثلما ورد في قوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"³⁵

يسلمنا هذا القول الأخير الى موضوع المقال و صلبه، وهي إشكالية الإسلام والديمقراطية. فالديمقراطية كما نقرؤها في الخطاب السياسي الدولي الراهن هي سيدة المفاهيم. إنها الوسيلة والغاية في آن. وهي إلى جانب ذلك كله المقياس الذي تقاس به الشوب، إما هي متقدمة أو متأخرة..نامية أو متخلفة..استبدادية أم تحررية.. فهي على حد قول فوكوياما "نهاية التاريخ"، وآخر مراحل النضج الفكري وبها تتحقق السعادة والرخاء. في حين أن الإسلام يقرأ من عدة زوايا فهو من منظور الأنا لا يخرج عن ثنائية الأصالة والمعاصرة. ومن وجهة نظر الآخر فهو العدو الجديد للديمقراطية التي بالكاد تخلّصت من شبح

³² ميشال بوغنون-موردان- أميركا التوتاليتارية - الولايات المتحدة والعالم إلى أين؟ تعريب د.خليل أحمد خليل - دار الساقى - الطبعة الأولى 2002، ص542.

³⁴ فهمي هويدي، الإسلام والديمقراطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام، الطبعة الأولى، القاهرة، 1993، ص 8.

³⁵ القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية 13.

النظام الإشتراكي. إنّه دين الإرهاب والرجعية والتأخّر حسب رواد المدرسة الليبرالية سواء في الداخل أو الخارج.

هذه بصورة عامة جوانب المسألة كما يضعها رواد الفكر الليبرالي المتطرّف تجاه "الأنا" من ناحية و بخصوص الهيكل العام لعلاقة الآخر بالإسلام. ولكنها في اعتقادنا نظرة تفتقد كل شروط الموضوعية ويغلب عليها طابع الايدولوجيا المتسلّطة. أي رؤية الآخر المتفوق ماديا والمنهزم روحيا وعقائديا. إنها قراءة مادية سطحية لحقائق الأمور. ذلك أن الآخر الغربي أو نظيره الحدائوي في الداخل لا يقيس الأمور إلا على منظاره الخاص. وهذا ما نستنتجه من خلال التجارب الاسلامية التي تماهت مع التجربة الديمقراطية طوعا أو كرها. مثلما حصل في عديد التجارب العربية التي قبلت بألية الانتخاب لمنافسة القوى السياسية المقابلة. ولكن كلما كانت النتائج في صالح الشق الاسلامي إلا وتعالّت صيحات الفرع والتنديد سواء من التيارات العلمانية والتحديثية في الداخل أو الخارج ممثلا في موقف الدول العظمى.

فالخطاب السياسي الأمريكي وبعد تخلصه من كابوس الاشتراكية أصبح شديد الحذر من الخطاب الاسلامي وخاصة السلفي منه الذي يأب الانصهار في عملية التغريب و "الدمقرطة" باعتباره وفيا للقرآن و للقائد محمد صلى الله عليه وسلم. أي أولئك الأوفياء للنبي أو على حد تعبير Viviane Comerro "محيط التجربة النبوية" وهذا هو الفرق بين التيار الأصولي والإصلاحي في العالم الإسلامي.³⁶

وهذا ما نقرأه في خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما: " إن نظام الحكم الذي يسمع صوت الشعب ويحترم حكم القانون وحقوق جميع البشر هو النظام الذي أوّمن به. وأعلم أن جدلا حول تعزيز الديمقراطية وحقوق جميع البشر كان يدور خلال السنوات الأخيرة وأن جزءا كبيرا من هذا الجدل كان متصلا بالحرب في العراق. اسمحوا لي أن أتحدث بوضوح وأقول ما يلي.. لا يمكن لأية دولة ولا ينبغي على أية دولة أن ترفض نظاما للحكم على أية دولة أخرى."³⁷

واللافت للنظر هنا، واستنادا لما سبق بيانه أن كل ما هو خطاب غير ديمقراطي يتطابق مع ما انتجته الليبرالية والمدنية الغربية يعد خرقا لحقوق الإنسان أي تلك الفكرة التي دافع عنها فوكوياما- في إطار نقده للشمولية القومية- أي "الشمولية الليبرالية".

وحري بنا أن نتساءل- إذا ما نظرنا إلى واقع الحال العربي منذ انهيار النظام في تونس وتتالي الموجات الشعبية الراضة لنظام الحكم في أكثر من بلد وصولا إلى المثال السوري- عن نتائج التعارض بين ما هو ديمقراطي وإسلامي؟ وهذا ما سنسعى إلى ابرازه في العنوان التالي:

³⁶ Viviane Comerro, *Islam et modernité, quelques jalons d'un parcours historique*, Université d'automne « Religions et modernité », eduscol, Portail national des professionnels de l'éducation, 15 avril 2011.

³⁷ خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما، جامعة القاهرة، القاهرة، 4 يونيو 2009

2.2. الواقع العربي الراهن و المسألة الاسلامية:

لكي نفهم هذا المشكل حق الفهم، سنكتفي بملاحظة ما أسفرت عنه "الثورات" العربية و ننتقي نتائج الحراك السياسي المفاجئ إلى حد بعيد الذي أسفر عن وصول التيارات الإسلامية إلى السلطة، لنذكر صحة ما ذهبنا إليه منذ البدء من كون ما يسمى ب"الربيع العربي" هو في كليلته صناعة غربية بامتياز وكيف أن تأجيج الداخل كان بتغذية العامل الديني حتى يكون سبب فتنة. فلا الديمقراطية استطاعت أن تُسكت التشكيلات الدينية وخاصة منها المتشددة وأعني هنا بالتحديد التيار السلفي. ولا هذا الأخير استطاع تجاوز الموجة الديمقراطية التي تبنتها الأحزاب الإسلامية التي تماثلت معها. لتكون النتيجة على ما هو عليه واقع الحال الذي هو أشبه ما يكون بحالة الطبيعة التي تحدث عنها هوبز حيث "حرب الكل ضد الكل".

لنكتف، إذا بالتأكيد مرة أخرى- ولعل هذه هي الخلاصة العامة لما قمنا به حتى الآن من تحليل للمسألة موضوع بحثنا- على أن العلاقة بين الفوضى الخلاقة وإشكالية الإسلام والديمقراطية في الواقع العربي الحديث والمعاصر ليست علاقة سببية. فصحیح أنه من الناحية المبدئية نقرّ بوجود التيارات الإخوانية منذ أمد طويل في منطقة "الربيع العربي"، أعني البلدان التي حدثت فيها الموجات الشعبية. وأؤكد هنا على كلمة موجات شعبية وليس تحركات منظمة في إطار تشكيلات حزبية بعينها. ولكن المشكلة الحاصلة هنا والتي تعيق عملية الهدوء على الأقل في المرحلة الراهنة هو تقاوم التوتر لا بين الأحزاب الإخوانية (تونس ومصر مثلا) الفائزة في الانتخابات وبقية التيارات اليسارية المعارضة. بل واحتدام الصراع من ناحية ثانية بين تلك الأحزاب والتيار السلفي الراض تماما للعملية الديمقراطية والمدافع على إقامة الإمارة الإسلامية وتطبيق الشريعة كخطوة أولى للخلافة.

هذا ولا يفوتنا أن نشير في هذا الفصل إلى التحوّل المفاجئ في تصوّر الأفراد للديمقراطية، فمثلا لو أخذنا على سبيل المثال ما عاينته في بلدي تونس، فإن الديمقراطية وفق ما لاحظته من تصرفات الفاعلين هي حرية تعبير دون مسؤولية، حرية مطلبية دون إبداع، رفع مطالب اجتماعية وغياب المطالب الحضارية: أقصد غياب عزيمة الإبداع والعمل (لم نجد ولا مسيرة واحدة في تونس أو صوت ينادي بإصلاح التعليم وتعريب العلوم أو إصدار قوانين تساهم في صناعة التونسي الجديد الآخذ بأسباب المدنية الراقية³⁸ وفي مقدمتها تكبير العمل والجدية في البحث العلمي) أي ما سبق أن أسميناه في مقال سابق منشور في صحيفة المثقف بالدلالات والتجليات السلوكية والقيمية³⁹.

³⁸ لمزيد من التفصيل أنظر، سعيد الحسين عبدولي، الثورات العربية: البحث في الدلالات والتجليات السلوكية والقيمية، صحيفة المثقف، www.almothaqaf.com ، 05 /01 /2012.

إذا ينجح الخطاب الديمقراطي مرة أخرى في إشعال نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، العرق الواحد، الدين الواحد، التاريخ الواحد، المستقبل الواحد...حتى يقسم أبناء هذا الكل الواحد إلى ما يزيد عن 100 حزب يتنافسون وفق قاعدة عصبية حزبية ايديولوجية على السلطة وليس على مصير ومستقبل ذلك الكل الواحد الذي خطط له الآخر فكان له ما يريد، على الأقل إذا استمر الحال مثلما هو عليه الحال الآن.

عود على بدء، لا يسعنا إلا أن نقرّ أنه مثلما لا يمكن دراسة الحاضر مجتزءاً من ماضيه، واستشراف المستقبل بمعزل عن حاضره، لا يمكن دراسة الواقع العربي الراهن منقطعاً عن جذره التاريخي، ومفتقداً لشروط ديمومته واستمراره البعدي. ومن هنا فإن الإجابة عن الأسئلة السالفة لا يمكن أن يكون إلا من خلال الأبعاد الثلاثة للزمن: الماضي والحاضر والمستقبل. ولكن وفق دلالاته الاجتماعية لا في سياقاته التجريدية. لأن ذلك يمكننا من إدراك كينونة الفعل الاجتماعي متكاملًا لا متجزئًا وقياسه كاملاً لا مبتوراً.

إذا المسألة الإسلامية هي الفعل، والإطار العربي ناظرًا ومنظورًا إليه هو ذلك الجانب من التاريخ بأبعاده المشار إليها. ونحن إذ عزمنا على فك مغاليق هذا التقابل بين الفعل والزمن في عنوان "الربيع العربي" والمسألة الإسلامية، فإننا لا نروم إلا أن نسجل جملة من الملاحظات وفق ملاحظتنا الميدانية المباشرة:

- إن الإسلام: الدين/ التاريخ/ الحضارة/ العبادة...هو المحرك الرئيسي للفوضى الخلاقة التي نبعث أصلاً من رحم الصراع على السيادة الكونية. أعني الشمولية أو الدولة العظمى التي نظّر لها فوكوياما باعتبارها وريثة شرعية للدولة القومية التي تسببت في قتل الملايين من البشر في أوروبا.
- إن "الربيع العربي" لا يمكن أن يكون كذلك، أي وردياً ومزهراً ما لم يمتثل إلى شروط النهضة الحقيقية يلائم فيها بين المعاصرة والأصالة، وإلا فهو سيسقط في "مقولة التاريخ يعيد نفسه" منذ مرحلة الأفغاني ومحمد عبده.
- كيف السبيل للتخلص من شبح الآخر ونحن لا نمتلك السبل الرئيسية الحقيقية للنهضة وهي العلم والمعرفة لخلق مقومات القوة، والإصلاح السياسي لصياغة الإنسان الجديد، وإعادة المصالحة مع الدين لنكون مسلمين، ومراجعة ارتباطاتنا مع الآخر حتى يحق لنا الانخراط كفاعلين في المجتمع الدولي لا كتابعين.
- المسألة الإسلامية هي عامل وحدة لا تفرقة بشرط استبعاد الآخر بفلسفته الهدامة.

الاستنتاج:

بعد هذا العرض لماهية الفوضى الخلاقة وتطبيقاتها في العالم الإسلامي، يبدو أن سؤالاً محورياً لا بد من طرحه، وهو سؤال يتجاوز البعد التجريدي والكلامي، سؤال يراعي خصوصيات الواقع الإسلامي ومنه

العربي مثلما يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المجتمع الدولي وما يطرأ عليه من تغيرات تؤثر في الداخل. إذن السؤال المحوري الذي يمكن طرحه في هذا السياق هو: ما السبيل لتجاوز واقعا البائس؟ هل بالإنخراط في ما يصوغه لنا الآخر من شروط؟ أم بقراءة جريئة لتاريخنا وواقعا ومن ثمة إعادة تشكيل شروط النهضة بقدر من المسؤولية والجرأة وخاصة العلم والمعرفة وإقامة العدل الذي هو أساس العمران وهي جميعها من ثوابت الدين الإسلامي؟

إن المجتمع الاسلامي قادر على تحقيق النهضة الشاملة لو تجاوز فخ الفوضى الخلاقة التي يطرب لها العديد حتى أطلقوا عليها اسم الربيع العربي، وماهي في النهاية إلى الخراب العربي: ويكفي للتدليل على ذلك معاينة الخراب الذي لحق بالبلدان التي حصلت فيها الثورات ومعاينة حجم الدمار وما سيترتب عن ذلك من اعادة تشكيل للخارطة. والخطر من كل ذلك كله غياب قراءات ومراكز بحث اسلامية تدرس ما يدور من أحداث وتهبّي للمرحلة القادمة. وللأسف الشديد فإن كل ما نراه لا يزيد عن كونه شعارات فضفاضة يتعالى صداها على صوت الرصاص وبكاء الأطفال وصراخ النساء وتفجير القنابل وإراقة الدماء أي ما أسميناه بالفوضى الخلاقة.

الهوامش:

أ تنص خارطة "الشرق الأوسط الجديد" التي وضعها "برنارد لويس" بالنسبة لشمال إفريقيا، على تفكيك ليبيا والجزائر والمغرب بهدف إقامة ثلاثة أقسام تضم ستة دول، هي: "دولة البربر" أي "الأمازيغ" (المنتشرون في دول شمال إفريقيا)، والتي سوف تمتد من جنوب المغرب حتى البحر الأحمر على امتداد "دولة النوبة" بمصر وأقصى شمال السودان. و"دولة البوليساريو"، وهم أحد العرقيات الموجودة في المغرب، ولديهم "جبهة البوليساريو" التي تطالب اليوم بأن تكون لهم دولة باسم "الجمهورية الصحراوية"، وذلك بسبب اختلاف أعراقهم عن الأعراق العربية، وإحساسهم بأنهم مهمشون في كيان الدولة المغربية الحالية، ولا يشاركون في حكم المغرب... على أن تقام في الأراضي المتبقية بعد اقتطاع حصة "البربر" و"البوليساريو" دويلات: "المغرب" و"الجزائر" و"تونس" و"ليبيا"، وهي دول مرشحة أيضًا للتفتت فضلًا عن اقتطاع حصة "البربر" منها، لكن تقسيمها قد يكون على شكل فيدراليات أو كونفيدريالات أو ما شابه، نظرًا لتكونها -وخصوصًا "ليبيا"- من قبائل متعددة ذات حساسيات تاريخية، بحيث لا ترضى أي منها أن تحكم من الأخرى.

نقلا عن عبدو شامي، شرارة الفوضى الخلاقة.. الثورة التونسية، المراقب يوم 01 - 05 - 2011.

ب إنَّ هذا ما سيُعبَّر عنه الكاتب في مجلة "التايم" تشارلز كروثامر (Charles Krauthammer) على نحو لا شوب في صراحته: "ليست أميركا مجرد مواطن عالمي. إنَّها السلطة المهيمنة في العالم، وأكثر هيمنة من أي قوة أخرى منذ عهد روما. ووفقًا لذلك، فإنَّ أميركا في وضع يؤهلها لإعادة تشكيل المعايير وتغيير التوقعات وخلق حقائق جديدة. أمَّا كيف يكون ذلك؟ فيكون - برأيه - عن طريق إظهار إرادة غير اعتدائية لا سبيل إلى تغييرها.

نقلا عن لويس هـ. لافام، روما الأميركية، عن نظرية الإمبراطورية الفاضلة، نقله إلى العربية شادي عمران بطاح في إطار ملف أعدته "مجلة الثقافة العالمية" الكويت. بعنوان طبيعة الدولة الفاضلة. العدد 117 مارس / أبريل 2003.

ت في بداية الحرب السورية الداخلية دعمت الولايات المتحدة كيفما كانت أشكال الدعم الجيش السوري الحر وجميع الفصائل التي تقاتل النظام تحت راية الإسلام والتوحيد حتى انبثقت عنها جبهة النصرة التي غضت عنها الولايات المتحدة الطرف في بداية الأمر ولكنها سرعات ما تراجعت عن موقفها لتصنفها ضمن قائمة الإرهاب لسبب بسيط وهو تعارضها مع الطرح الليبرالي والديمقراطي وسعيها لإقامة دولة الخلافة في سوريا، وهذا نستنتج مرة أخرى كيف أن الولايات المتحدة تجاري التشكيلات الاجتماعية التي لا تتفق معها جذرا وتدعمها من أجل تحقيق مآربها أي " الحرب بالوكالة" ولكن سرعان ما تعدل عن موقفها بمجرد احساسها بالخطر بل قل كلما أرادت توجيه الأحداث وفق الخطط التي رسمتها ومستجدات الميدان، وتلك هي أرقّة مظاهر الفوضى الخلاقة.

ث هذا النموذج المتطرّف طبق في تركيا مع كما أتاتورك وفي تونس مع الحبيب بورقيبة والذي قال عنها الباحث المنصف وناس أن العلمانية البورقبيبية أشدّ تطرفا من العلمانية الأتاتورية: المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في تونس، دار الميثاق للطباعة والنشر و التوزيع، تونس 1988.

ج إن تقسيم العراق وتدميره كان عنوانا واضحا لحرب الخليج الأخيرة، واليوم بعد أن وضعت الحرب أوزارها ومرت العشرية الأولى من رحيل الرئيس صدام حسين، كيف يمكن أن نعاين المشهد العراقي؟ سأكتفي بالقول أن قوات البشمركة أي القوات المسلحة التابعة لإقليم كردستان المتمتع بحكم ذاتي في ظل السيادة العراقية بدأ يحشد قواته العسكرية تحت غطاء أمريكي قصد ضمّ كركوك وذلك تمهيدا لإعلان استقلاله التام عن العراق في السنوات القادمة. وهو ما سيتزامن مع المفاجآت التي تخفيها الحرب على سوريا والتي ستكون من نتائجها طبعا تقسيمه طائفيا وعرقيا.

ح لا يعني ذلك أن التجربة الأفغانية تخلو من سلبيات، وهي لنن وجدت فإن حلّها لا يمكن أن يكون عن طريق أمريكا وأتباعها، بل وجب أن يكون من مهام النخب في الداخل بمساعدة مكونات المجتمع الدولي إذا كانت نواياها حسنة.

خ مثل الإسلام المتوسطي، الإسلام المنفتح، الإسلام التونسي، الإسلام الأمريكي، الإسلام الفرنسي، الإسلام الديمقراطي...

المراجع والمصادر:

1. القرآن الكريم.
2. الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام، خطبة الوداع.
3. السيد نعيم، الفوضى الأمريكية .. "غير الخلافة" في العراق، أخبار مصر يوم 20 - 08 - 2007، نقلا عن : الجمهورية 07/8/20
4. إبراهيم كريم، الفوضى الخلاقة دليل إفلاس، موقع قناة المنار.
5. خالد عبد القادر أحمد، كيف يجري تنفيذ نظرية الفوضى الخلاقة، دنيا الوطن، 2011.
6. خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما، جامعة القاهرة، القاهرة، 4 يونيو 2009.
7. خطاب كونداليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية.
8. خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب، أثناء حرب الخليج الثانية، 29 جانفي 1991.
9. خطاب الرئيس العراقي صدام حسين، قبل نشوب حرب الخليج بيومين، 1991.
10. سعيد الحسين عبدولي، الثورات العربية: البحث في الدلالات والتجليات السلوكية والقيمية، صحيفة المثقف، www.almothaqaf.com، 05 /01 /2012.
11. سعيد الحسين عبدولي، الإسلام و الديمقراطية: بحث في أساسيات الخطاب و تداعيات الاختلاف- محاولة تبحث في مسألة الهوية الإسلامية في مواجهة الآخر الغربي، صحيفة المثقف، www.almothaqaf.com، 11-10-2012.
12. صحيفة واشنطن بوست، الإسلام والديمقراطية لا يتفقان.. شهر مارس 1992.
13. صياح عزام، إستراتيجية الفوضى الخلاقة بوجهيها الخادع والبشع، شؤون سياسية، تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر.
14. طلعت رميح، الفوضى الخلاقة اضطرابات عدمية أم تغيير ثوري مبرمج؟!، الأهرام المسائي، 08- مارس 2011.
15. عبد المجيد العبدلي، قانون العلاقات الدولية، دار أفواس للنشر، مطبعة فن وألوان، الطبعة الأولى، تونس، 1994.
16. عبدو شامي، شرارة الفوضى الخلاقة.. الثورة التونسية، المراقب، 01 ماي 2011.
17. غانم هنا، عودة الإستعمار، مجلة الوحدة، العدد 77-78، الرباط.
18. فهمي هويدي، الإسلام والديمقراطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام، الطبعة الأولى، القاهرة، 1993.
19. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، مجموعة مترجمين، بيروت، 1993.
20. لويس هـ. لاقام. روما الأميركية عن نظرية الإمبراطورية الفاضلة. نقله إلى العربية شادي عمران بطاح في إطار ملف أعدته "مجلة الثقافة العالمية" الكويت. بعنوان طبيعة الدولة الفاشلة، العدد 117 مارس ، أبريل 2003.
21. محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990.
22. محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأميركية، "وجهات نظر"، القاهرة، العدد الخمسون، السنة الخامسة، مارس 2003.
23. محمود حيدر، الفلسفة السياسية للمحافظين الأميركيين الجدد: أيديولوجية الفوضى الخلاقة، صحافي وباحث في الفكر السياسي- رئيس مركز "دلنا" للصحافة والأبحاث، مجلة الدفاع الوطني، العدد 329، www.lebarmy.gov.lb
24. مركز محمد وذكّر، الديمقراطية في الميزان، الشبكة المعلوماتية www.wathakker.info، تاريخ الاضافة 24-12-2011.
25. ميشال بوغنون-موردان، أميركا التوتاليتارية – الولايات المتحدة والعالم إلى أين؟ تعريب د.خليل أحمد خليل، دار الساقى، الطبعة الأولى، سنة 2002.

1. Bruce Ackerman proposes a periodization of the first three regmes or phases of U.S. Constitutional history. See wetne people: Foundations (Cambridge, Mass: Harverd University press 1991) in particular pp.58-80
2. Le Temps, (Jeudi 21 janvier 2010).
3. Viviane Comerro, Islam et modernité, quelques jalons d'un parcours historique, Université d'automne « Religions et modernité », eduscol, Portail national des professionnels de l'éducation, 15 avril 2011. Gerard Chaliand et Arnaud Blin American is back – less Nouveaux Cesars dzu. 2002 Pentagooune. Paris.